الفصل الرابع
منهج (الضّحاك) في التفسير

قدّم الباحث محمد شكري أحمد الزاويتي بحثاً قيماً بعنوان (تفسير الضحّاك) ، وذلك لنيل شهادة الدكتوراه في التفسير.

وقد تحدّث فيه عن حياة التابعي ، ثم عن تفسيره: مصادره في التفسير ، ومدىٰ اهتمامه بالقراءات ، والناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول.

وتعميماً للفائدة ، واستكمالاً للبحث ، ننقل بعض ما ورد في رسالته.

٤١ـ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[1] قال الضحّاك: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم ، فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلىٰ القبور ، فهذه ميتتان وحياتان[2].

٤٢ـ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[3].

قال الضحّاك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدّقوا.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يعني: أطعموا من حلال الرزق الذي

---

(١) غافر: ١١.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٦٧.
(٣) البقرة: ١٧٢.

أحللناه لكم؛ فطاب لكم بتحليلي إياه لكم مما كنتم تحرمونه أنتم ولم أكن حرّمته عليكم من المطاعم والمشارب.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ يقول: وأثنوا علىٰ الله بما هو أهل له علىٰ النّعم التي رزقكم وطيّبها لكم.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم منقادين لأمره سامعين مطيعين، فكلوا مما أباح لكم أكله وطيّبه لكم، ودعوا في تحريمه خطوات الشيطان[1].

٤٣ـ وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[2].

قال الضحاك[3]: إنهم فرّوا من الجهاد لما أمرهم الله به علىٰ لسان حزْقيل النبي ﷺ، فخافوا الموت بالقتل في الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماتهم الله ليعرّفهم أنه لا ينجّيهم من الموت شيء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد، بقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4].

٤٤ـ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾[5].

قال الضحاك: أن لا يُنفق الرجل ماله خير من أن ينفقه ثم يتبعه منّاً وأذىٰ، فضرب الله مثله كمثل كافر أنفق ماله لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فضرب الله مثلهما جميعاً كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ٥٠، الدر المنثور: ١/ ١٦٨.
(٢) البقرة: ٢٤٣.
(٣) تفسير القرطبي: ٣/ ٢٢٧.
(٤) البقرة: ١٩٠.
(٥) البقرة: ٢٦٤.

فتركه صلداً ، فكذلك من أنفق ماله ، ثم أتبعه منّاً وأذى[1].

٤٥ـ في تفسير قولـه تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2].

قال الضحاك: بعث النبي ﷺ طلائع ، فغنم رسول الله ﷺ ، فقسم بين الناس ولم يقسم للطلائع شيئاً.

فلما قدمت الطلائع فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا ، فأنزل الله هذه الآية[3].

٤٦ـ وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4].

قال الضحاك: لما أصيب الذين أصيبوا يوم أحد ، لقوا ربهم فأكرمهم ، فأصابوا الحياة والشهادة والرزق الطيّب.

قالوا: يا ليت بيننا وبين إخواننا من يبلّغهم: إنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ، فقال الله تعالىٰ: أنا رسولكم إلىٰ نبيّكم وإخوانكم ، فأنزل الله هذه الآية[5].

٤٧ـ وفي تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٤٥.
(٢) سورة آل عمران: ١٦١.
(٣) تفسير الطبري: ٤/ ١٠٣ ، الدر المنثور: ٢/ ٩١.
(٤) آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٥) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٧ ، مسند أحمد: ١/ ٢٦٥.

﴿فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قال الضحاك: كان قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فنقضوا العهد، وقطعوا السبيل، وأفسدوا في الأرض، فخيّر الله عز وجل نبيّه ﷺ فيهم، فإن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو يُنفوا من الأرض.

قال: هو أن يطلبوا حتىٰ يعجزوا، فمن تاب قبل أن يقدر عليه قُبل ذلك منه[2].

٤٨ـ وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3].

قال الضحاك: معناه: شياطين الإنس التي مع الإنس وشياطين الجنّ التي مع الجنّ، وليس للإنس شياطين.

وذلك أن إبليس جعل جنده فريقين، فبعث فريقاً منهم إلىٰ الإنس، وفريقاً منهم إلىٰ الجنّ، وكلا الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه وهم يلتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجنّ: أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله، ويقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك يوحي بعضهم إلىٰ بعض[4].

٤٩ـ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ

---

(١) المائدة: ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) تفسير الطبري: ٦/ ١٣٣، زاد المسير: ٢/ ٢٤٣.
(٣) الأنعام: ١١٢.
(٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٦٦.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

قال الضحاك: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاةً أو تهجّداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالىٰ: أوفّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين[2].

٥٠ ـ وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[3].

قال الضحاك: كان ناس من قبائل العرب حول المدينة من القرىٰ، كانوا يقولون: نأتي محمداً ﷺ فننظر في شأنه، فإن صادفنا خيراً ثبتنا معه، وإلا لحقنا بمنازلنا وأهلينا، وكانوا يأتونه فيقولون: نحن علىٰ دينك فإن أصابوا معيشة ونتجوا خيلهم وولدت نساؤهم الغلمان اطمأنوا، وقالوا: هذا دين صدق، وإن تأخّر عنهم الرزق وأزلقت خيولهم وولدت نساؤهم البنات، قالوا: هذا دين سوء فانقلبوا علىٰ وجوههم[4].

٥١ ـ وفي تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[5].

سئل الضحاك عن أرواح الشهداء، فقال: تجعل أرواحهم في

---

(١) هود: ١٥ ـ ١٦.
(٢) تفسير الطبري: ٩/١٢، تفسير ابن كثير: ٤٣٩/٢.
(٣) الحج: ١١.
(٤) تفسير الطبري: ٩٦/١٧، تفسير القرطبي: ٢٦/١٢.
(٥) غافر: ٤٦.

أجواف طيرٍ خُضر تسرح في الجنة ، وتأوي بالليل إلىٰ قناديل من ذهب معلّقة بالعرش فتأوي فيها.

قيل: فأرواح الكفار؟ قال: توحَّد أرواحهم فتجعل في أجواف طيرٍ سودٍ تغدو وتروح علىٰ النار ، ثم قرأ هذه الآية[1].

٥٢ـ وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2].

قال الضحاك: يعني قريشاً.

يقول: إنما أنا رجل منكم فأعينوني علىٰ عدوّي واحفظوا قرابتي ، وإن الذي جئتكم به لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربىٰ ، أن تودّوني لقرابتي ، وتعينوني علىٰ عدوّي[3].

٥٣ـ وفي تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[4].

قال الضحاك[5]: زعموا أن الشياطين تنزلت به علىٰ محمد ﷺ ، فأخبرهم الله أنها لا تقدر علىٰ ذلك ولا تستطيعه ، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا ، وهو محجوب عنهم ، وقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[6].

٥٤ـ وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[7].

---

(١) الدر المنثور: ٢/ ٣٥٢ ، تفسير ابن كثير: ٤/ ٨٢.
(٢) الشورىٰ: ٢٣.
(٣) تفسير الطبري: ٢٥/ ٦ ، تفسير ابن كثير: ٤/ ١١٢.
(٤) الواقعة: ٧٩.
(٥) تفسير الطبري: ٢٧/ ١١٨.
(٦) الشعراء: ٢١١ ـ ٢١٢.
(٧) الصف: ٨.

قال الضحاك: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ محمد ﷺ، يريدون هلاكه بالأراجيف[1].

٥٥ـ وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[2].

قال الضحاك: إذا ذكرتُ ـ أي: ذكر الله تعالىٰ ـ ذكرتَ يا محمد معي، ولا تجوز خطبة ولا نكاح إلّا بذكرك معي ﷺ[3].

* * *

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٨٢.
(٢) الشرح: ٤.
(٣) الدر المنثور: ٦/ ٣٦٣، تفسير القرطبي: ٢٠/ ١٠٧.